روائع الحضارة والثقافة الإسلامية في بلاد البنغال من خلال نقوشها الإسلامية *

محمد يوسف صديق*
أستاذ التاريخ الإسلامي و الدراسات الإسلامية
جامعة بنجاب، لاهور، باكستان

Inscriptions started appearing on Muslim monuments in Bengal soon after the Muslim consolidation in the region in the early 13th century. Most of these monuments had some kind of epigraphic programs on them since Islamic culture considered inscriptions a powerful medium to convey visual, cultural, and spiritual messages to its people. These inscriptions were rendered in various styles such as Kufi, *thulth*, *naskh*, *riqa'*, *rayhani*, *muhaqqaq*, *tughra'* and Bihari.

These inscriptions refer to the cultural continuity of the Muslims of Bengal and their counterparts elsewhere in the Muslim world, which binds them together as an umma. Thus, in spite of their many distinctive local cultural features, one soon discovers in these wonderful epigraphic treasures the most vibrant message -- unity within diversity -- that is prevalent everywhere in Islamic culture.

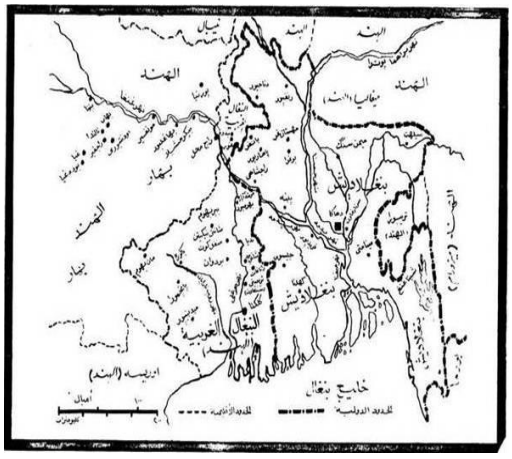

مظاهر الحضارة الإسلامية في البنغال:

فقد بزغ نور الإسلام وانطلقت حضارته في وقت كانت الحضارات

*يقدم الباحث خالص الشكر والامتنان لمؤسسة ماكس فان بارشم في جنيف بسويسرا، و لوزارة التعليم العالي (Higher Education Commission)بباكستان لكل ما قدمتا من الدعم المالي والمعنوي والتشجيعلهذا المشروع العلمي ، ولولا دعمهما المالي المستمر لي لما قدّر لهذا المقال أن يخرج إلى حيز الوجود.

السابقة في طريقها إلى الانهيار والاضمحلال. كانت البشرية آنذاك تهيم في ضلال الجاهلية وتعاني من أجوائها الملبدة بالزيغ والانحراف، فجاءت رسالة الإسلام هبة ثمينة منحها الله تعالى للبشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور.

جاء الاسلام بمنهج متكامل للحياة البشرية يحوي كلّ ما تتطلبه هذه الحياة من خير وهداية ونظام، ويتضمن ما يكفل للبشرية سعادتها في الدنيا والآخرة، ولم يكن الإسلام كغيره من الأديان التي تدعو الإنسان إلى العزوف عن الدنيا، فالإسلام لا يقر الرهبانية، لقد جاء الإسلام ليقدّم للبشرية منهاجا واقعيا سليما شاملا متكاملا، ويبين لها دورها في هذه الدنيا كي تقوم هي بدورها بعمارة الأرض، وكذلك يبين لها حقيقة الآخرة لتعمل لها، كما جاء في قول نبي الإسلام محمد ﷺ : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"، وانطلاقا من تلك الشمولية وذلك التكامل اللذين تتسم بهما رسالة الإسلام بدأ المسلمون يترجمون ما جاء به الإسلام من دعوة للبناء والعمران في حياتهم العملية، وهكذا كان ميلاد الحضارة الإسلامية العلميّة العمليّة، المتفرّدة بخصائصها ومقوّماتها.

لقد أقام المسلمون دعائم حضارتهم على أسس ثابتة راسخة، منطلقين من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، فكانت حضارتهم متجددة متميزة عن الحضارات الأخرى، ولم يقتصر التراث الإسلامي على ما أنتجه العلماء المسلمون من مخطوطات ثمينة في مجالات العلوم الدينية والدنيوية، بل تعدّى ذلك إلى ما تركه لنا الفنانون المسلمون من العمائر والصناعات الفنية في الشرق والغرب على السواء والتي اتسمت بذوق جمالي رفيع، ذلك أنّ القيمة الجمالية تعتبر من الصفات العليا التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحاء، فالله سبحانه وتعالى جميل يحبّ الجمال، وكان من أهم العناصر الجمالية في المنتجات الفنية الإسلامية الخطّ والكتابة حيث اعتمدهما المسلمون كعناصر أساسية للأعمال الزخرفية والفنية، وابتكر الفنانون المسلمون أنواعا عديدة من الخطوط العربية وأودعوها عناية خاصة، فأبدعوا وأنتجوا روائع فنية متنوعة مما أثبت أصالة الفن الإسلامي وابتكاره.

ولم يكن انتشار الحركة الفنية الإسلامية وازدهارها بما في ذلك الخط العربي مقصورا على قطر إسلامي معين، بل شمل البلاد الإسلامية كلها، وقد لعب المشرق الإسلامي دورا هاما في الإضافات القيمة إلى تلك الفنون، وفي ابتكار أنواع جديدة من الخطوط، ومن أروع الأمثلة على ذلك ما عثر

عليه في بلاد الهند، حيث نجد أنّ الخط العربي وفنونه تشكل عنصرا هاما من عناصر الزخرفة في تلك البلاد، وقد نقش الخط العربي بأنواعه المختلفة على اللوحات الحجرية فضلا عن استخدامه فى مجالات أخرى مثل كتابة المخطوطات.

ولما كانت هذه النقوش تحوي أعمالا مختلفة لعلماء وفنانين كان لدراستها أهمية كبيرة في مجالات عديدة، فالنقوش خير شاهد على تطور الكتابة وزخرفتها عبر العصور المختلفة، وكذلك فإن نصوصها تعتبر كنزا من الكنوز العلمية المليئة بالمعلومات التاريخية الصحيحة عن الأزمنة الغابرة لا سيّما وأن هذه النقوش كانت تحمل عادة تاريخ كتابتها واسم الحاكم الذي أمر بالبناء، وخلاصة القول فإن دراسة النقوش والكتابات الأثرية تغطي جوانب عديدة في دراسة التاريخ والحضارة والفنون.

والنقوش الإسلامية العربية في شبه القارّة الهندية بصفة عامة وفى بلاد البنغال لصفة خاصّة لها أهمية كبيرة في دراسة الحضارة والفنون الإسلامية في تلك البلاد ، فقد شهدت بلاد البنغال أزهى عصورها خلال الحكم الإسلامي الذي ازدهرت فيه العلوم والفنون حتى وصلت إلى أوجها، وتميّزت النقوش الإسلامية العربية في هذه المنطقة بجودة كتابتها في الخطوط المختلفة، وكذلك فإن نصوصها غنية بالمعلومات التاريخية المتنوعة، فلم يكن غنى للباحث في التاريخ والحضارة الإسلامية في أن يعتمد عليها في أبحاثه.

تستهدف هذه الدراسة تحليل تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية في إقليم البنغال (*ويشمل* حالياً بنغلاديش ودولة غرب البنغال الهندية) وذلك خلال الفترة من 1205 إلى 1707 ميلادي من واقع النقوش الكتابية الإسلامية في المنطقة حيث يعتمد الكتاب على النقوش الكتابية في عمائر البنغال الآثارية بوصفها مصدراً رئيساًله. و إن أهمية هذا المقال تبرز من كونه يعالج وجهة نظر جديدة تستفيد من متابعة التفاعلات الدينية والثقافية خلال فترة مهمة جداً من تاريخ إقليم البنغال. كما أن هذا المقال يمثل خطوة متقدمة في كيفية فهم وتحليل التحولات الاجتماعية والثقافية والدينية في إقليم جنوب شرق آسيا من واقع النقوش الكتابية في الإقليم وذلك وعلى نحوٍ غير مسبوق. ولا شك في أن هذا المقال سيساعد على فهم التاريخ المعقد والمتداخل لدخول الإسلام في تلك المنطقة التي لا تزال محافظة على هويتها الإسلامية ودورها الريادي البارز إضافة إلي استمرار اتصالها المباشر ببقية أنحاء العالم الإسلامي.

بالرغم من بعد إقليم البنغال عن مهبط الوحي وشبه الجزيرة العربية عامة، فقد لعب دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي منذ أن دخل الإقليم تحت الحكم الإسلامي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. وبالرغم من أن حكام هذا الإقليم القصي كانوا يعينون من قبل حكام دلهي فانهم كانوا يميلون إلى ممارسة سلطاتهم كحكام ذوي سيادة منفصلة مما طبع هذا الإقليم بطابع الاستقلال السياسي ومنحه هويته المتميزة في الحكم منذ بداية الحكم الإسلامي. وفي الواقع فإنه ومنذ القرن الرابع عشر وحتى الربع الأخير من القرن السادس عشر للميلاد تعاقب على حكم الإقليم في الغالب حكام أقوياء مستقلون. كما شهد هذا الإقليم ازدهاراً كبيراً تحت حكم بعض أولئك السلاطين والحكام الأقوياء حيث ازدهرت حركة الآداب والعلوم وتنامت العلاقات والروابط الثقافية التي تربطه بالعالم القديم. وقد شهدت تلك الفترات توافد رسل حكام الصين على الإقليم بينما سافر سلاطين البنغال غربا حتى مصر في إطار توثيق الروابط والعلاقات الدبلوماسية مع العالم الإسلامي. وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي تمكن الإمبراطور المغولي أكبر أن يخضع إقليم البنغال تحت قبضته. وبالرغم من أن دور إقليم البنغال كان قد اضمحل ليكون إقليما صغيرا تابعا لإمبراطورية المغول إلا أنه كان لا يزال حتى تلك الحقبة من أغنى أقاليم جنوب شرق آسيا، وكانت موانئه معبرا للعديد من حجاج جنوب و شرق آسيا أثناء رحلاتهم إلى مكة والمدينة في مواسم الحج والعمرة. ويمثل موسم الحج ملتقى للمسلمين من كافة أنحاء العالم وهو بلا شك فرصة للتفاعل والتلاقح الفكري بين الكثير من المسلمين.

وبصورةٍ عامة يمكن التأكيد على أن تاريخ المخطوطات في الامبراطوريات الإسلامية في جنوب شرق آسيا حافل وغني وثريَ ، وينطبق ذلك بصورة خاصة على ما كتب بالفارسية مما يتوفر منها لدى السلطات المركزية في دلهي حيث سجلت العديد من الشواهد والأحداث لمختلف السلاطين والملوك الذين تعاقبوا على الحكم في دلهي. أما فيما يتعلق بالبنغال فإنه لا توجد الكثير من المخطوطات التاريخية التي تسجل تاريخ الممالك والسلطنات التي تعاقبت على تلك المنطقة. ومما لا شك فيه أننا لم نتحصل إلا على النزر اليسير مما كتب عن تلك الفترة. ولعل من الشواهد على المخطوطات الضائعة عن تلك الفترة، إحدى المخطوطات التي دونت باللغة الفارسية والتي تصور العهد الأول للحكم الإسلامي في البنغال والتي عثر عليها فرانسيس بوجانان في أحد أضرحة پنڈوه في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وذكرها في كتابه "وصف جغرافي وإحصائي وتاريخي لمقاطعة دیناج‌پور في بالبنغال – كلكتا 1833". ولا ريب في أن

هناك العديد من العوامل التي تضافرت وأدت إلى فقدان أو ضياع المصادر المخطوطة، مثل الكوارث الطبيعية والفيضانات والحرائق. كما أن فصل المطر الطويل والطقس الرطب في البنغال يجعل أمر المحافظة على هذه المخطوطات أمرا بالغ الصعوبة.

ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في ندرة المصادر عن التاريخ الإسلامي لمنطقة البنغال، الطريقة التي كان يتعامل بها مؤرخو الامبراطورية في دلهي مع المنطقة، إذ لم يكن الكثير منهم يحرصون على تسجيل ما يدور في تلك المنطقة نظرا لبعدها عنهم. وحتى عندما يتم كتابة أو تسجيل شيء عنها فإن ذلك غالبا ما كان يعكس وجهة نظر رسمية خصوصا ما يتصل بأخبار البعثات العسكرية التي كانت الحكومة المركزية ترسلها لإخضاع الإقليم الذي كان حكامه يميلون عادة إلى التمرد على سلطان الحكومة المركزية. وحيث إن المخطوطات التي تسجـل ذلك تكتب غالبا في العاصمة دلهي فإنها تحمل بين طياتها علاوة على التحيز المدني ضد المناطق الريفية النائية وجهة النظر الحكومية وبالتالي فإنها نادراً ما تمثل مصدراً محايداً للمعلومات عن هذا الإقليم. وبالرغم من الاهتمام الكبير الذي حظي به تسجيل التاريخ السياسي لمنطقة البنغال خلال فترة الحكم البريطاني إلا أن القليل جداً من المؤرخين استطاعوا سرد تاريخ تلك المنطقة بحياد وتجرد. وقد كتب هنري بيفرلي- أول من تحدث عن التركيبة السكانية للإقليم- واصفاً سكان الإقليم بأنهم "ثلة من أروميات البنغال شبه البرمائية" (انظر: التقرير الإحصائي للبنغال – 1872 ، الفقرة 525). ولكن من المهم جدا أن نذكر أنه لم يسجل إلا القليل جدا عن كيفية دخول وانتشار الإسلام في منطقة البنغال والذي يعد من التحولات العقدية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية البارزة التي أثرت في المنطقة خلال العقود التالية. ولا شك في أن هذا الجانب المتصل بكيفية انتشار الإسلام في المنطقة يعد من الجوانب المهمة التي لا تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب.

هذه الدراسة لا يقتصر فقط على استعمال وسائل بحث حديثة وإيراد معلومات جديدة عن المنطقة وإنما يسعى أيضاً إلى إيجاد تفسير جديد وفهم معاصر لحركة التحول والتفاعل الإسلامي في أحد أقاليم الشرق الإسلامي. وبينما لا يملك المرء إلا أن يرقب برهبة وجلال اتساع وازدهار الحضارة الإسلامية في إقليم البنغال إلا أن هناك العديد من الأسئلة التي لا تزال دون إجابة فيما يتصل بالتفاعل والتمازج الإسلامي بالمنطقة. ومن بين الأمور المهمة محاولة التعرف على كيفية تحول هذا إقليم البنغال إلى منطقة ذات

كثافة وتمركز إسلامي غالب، بينما نجد أن هناك العديد من المناطق في شبه القارة الهندية لم تتعرض لمثل هذا التحول البارز.

أن هدف هذا المقال هو محاولة الإجابة على العديد من التساؤلات في هذا المجال و كذلك تحليل النظريات الحالية التي تفسر أو تناقش عوامل رسوخ الإسلام في المنطقة مثل الهجرات الضخمة لجموع المسلمين إلى المنطقة واعتناق العديد من السكان الأصليين البسطاء للإسلام ، وكذلك بروز الإسلام كعقيدة وأسلوب حكم وطرق تنظيم إداري و اقتصادي إضافة إلى دوره الفاعل في تطور المجتمع وتغيير النمط السائد في حياة المجتمع وتدل النقوش والشواهد الكتابية الأثرية إلي جانب ذلك على حدوث تغير في المفاهيم القديمة وبروز مفاهيم جديدة مبتكرة.

شبه أحد الإداريين الاستعماريين الفرنسيين العالم الإسلامي بصندوق الصدى حيث إن أقل حركة في أي ركن منه ترجّع صدى عبر الصندوق بكامله. وكما هو الحال في بقية أنحاء العالم الإسلامي فإن هذا التشبيه قد تجسد في إقليم جنوب شرق آسيا المعروف تاريخيا على أنه إقليم البنغال والذي يمثل ثاني أكبر كثافة إسلامية في العالم الإسلامي. وفي هذا العصر الذي أسهمت فيه أجهزة الاتصال الحديثة في تحويل العالم إلى قرية عالمية صغيرة فإن من المهم أن نفهم العالم الإسلامي بحضاراته وثقافاته المختلفة خصوصا أنه أصبح يمثل الآن خُمس سكان الكرة الأرضية. ولا شك في أن هناك تغيرات كبيرة ومهمة تكتنف الآن المجتمعات الإسلامية في كافة نواحي حياتها الاجتماعية ونظمها السياسية. وهذه التغيرات تنعكس بصورة أوضح في المجتمعات الإسلامية لدول الشرق الإسلامي خصوصا مجتمعات جنوب شرق آسيا. وفي حين نجد أن التطرف قد أسهم كثيرا في ازدياد التوترات بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة إلا أننا نلاحظ أيضا أن هناك بعض الخلط وسوء الفهم لطبيعة الإسلام وأطره، مما يجعل هناك حاجة ماسة إلى فهم أعمق لتاريخ الحضارة الإسلامية والعقائد والتراث الثقافي في العالم بأسره. وبالرغم من أن الهدف الرئيسي لهذا المقال هو دراسة وتحقيق بعض النقوش الكتابية الإسلامية النادرة في البنغال ومحاولة إيجاد تفسير تاريخي لكيفية انتشار الإسلام في هذا الإقليم إلا أن ذلك سيساعد كذلك على فهم الموروث الحضاري والثقافي لهذا الإقليم.

إن انتشار الإسلام في البنغال يعد من الظواهر المتشعبة بحيث يحتاج البحث فيه إلى نطاق محدد وإطار واضح. وكما هو واضح من

العنوان فإن المشروع يركز على موضوع " انتشار الإسلام من منظور تاريخي وأثري " مستخدما النقوش الكتابية الأثرية كمصدر رئيسي للبحث. ومن حسن التوفيق فأن إقليم البنغال غني بتراثه الثر ى من حيث توفر النقوش الكتابية الأثرية كنزا ثمينا من المادة التاريخية المتنوعة التي لم تدرس بعد. ولا أعتقد أننا نبالغ في التأكيد علي أن هذه النقوش الكتابية الأثرية تمثل سجلاً صادقاً لمطلع التاريخ الإسلامي في المنطقة.

وبالرغم من ذلك تبقى هذه المهمة عسيرة وشاقة. ذلك أن النقوش الكتابية الأثرية نادراً ما تقدم المعلومة على نسق منتظم بل تكون المعلومات في الغالب متناثرة ومبعثرة هنا وهناك وتحتاج إلى جهد في تجميعها وتنسيقها لتمثل كلًا متكاملاً. وفي حين أن المقال يركز على دراسة النقوش الكتابية الأثرية في الإقليم إلا أنه يضع أيضا المعلومات المستخلصة في سياقها التاريخي الصحيح وصولا إلى فهم صحيح وموثق لكيفية انتشار الإسلام في المنطقة. وكما تستخدم أيضا مصادر تاريخية أخرى متاحة.

ويبلغ عدد النقوش الكتابية المختصة بفترة الدراسة حوالي 400 نقش تقريباً. وفي الوقت الذي كانت معظم نقوش فترة ما قبل الحكم المغولي قد كتبت باللغة العربية فإن نقوش العهد المغولي كتبت بالفارسية. وبصورة أساسية فان هناك العديد من النقوش الكتابية الأثرية المعمارية التي تعطي معلومات عن بناء الصروح الإسلامية مثل المساجد ومدارس العلم وغيرها. وتتضمن العبارات الدينية الواردة في معظم هذه النقوش نصوصاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف. ولا شك في أن دراسة تلك النصوص تعين على فهم التوجهات والتحولات العلمية والمذهبية التي مر بها الإقليم. وسيكون أحد مقاصد هذه الدراسة استقصاء تلك النقوش وتفسيرها ومحاولة الوصول إلى فهم أعمق لكيفية انتشار الإسلام في تلك البقاع.

ومن جانب آخر، فإن هذه النقوش تشمل علي ذكر العديد من العلماء والفقهاء المسلمين. ومن ثم فإنها تمثل مصدراً مهماً في معرفة آفاق التعليم وتطوره. كما تركز الدراسة على التاريخ الفكري للمسلمين لسكان المنطقة. وتشمل على سبيل المثال تعريفا بالمدارس والمعاهد العلمية البارزة آنذاك والبحث في إمكانيات التواصل والربط فيما بينها وكيفية تناقل الأفكار والمذاهب وتقييم المقررات الدراسية والعلاقات بين المعلمين والدارسين والتعرف على القدرات الفكرية والتحصيلية خلال تلك الحقبة.

وثمة خاصية أخرى لهذه الدراسة ، ألا وهي تنوع واختلاف الألقاب والأسماء الواردة بهذه النقوش الكتابية، ولا شك في أن هناك دلالات

تاريخية لهذا التنوع والاختلاف. كما أن الألقاب تعكس أوضاع حكام البنغال في ظل الإسلام وتعكس علاقاتهم بالسلطات المركزية.

ويجدر بالذكر إن للعمارة الإسلامية المتمثلة في المساجد والكتابات الإسلامية والتعليم دور بارز في نشر الحضارة الإسلامية، وتقوم هذه الدراسة بتحقيق وتحليل كل من هذه الجوانب بالإضافة إلى اختلاف الخطوط والمفاهيم والنقوش. وقد نقشت العديد من الكتابات على العمائر الإسلامية بصورة أنيقة وجميلة حيث تنوعت أشكالها من الثلث إلى النسخ والرقعة والرقاع والتوقيع والطغرا والريحاني والمحقق والبهاري.

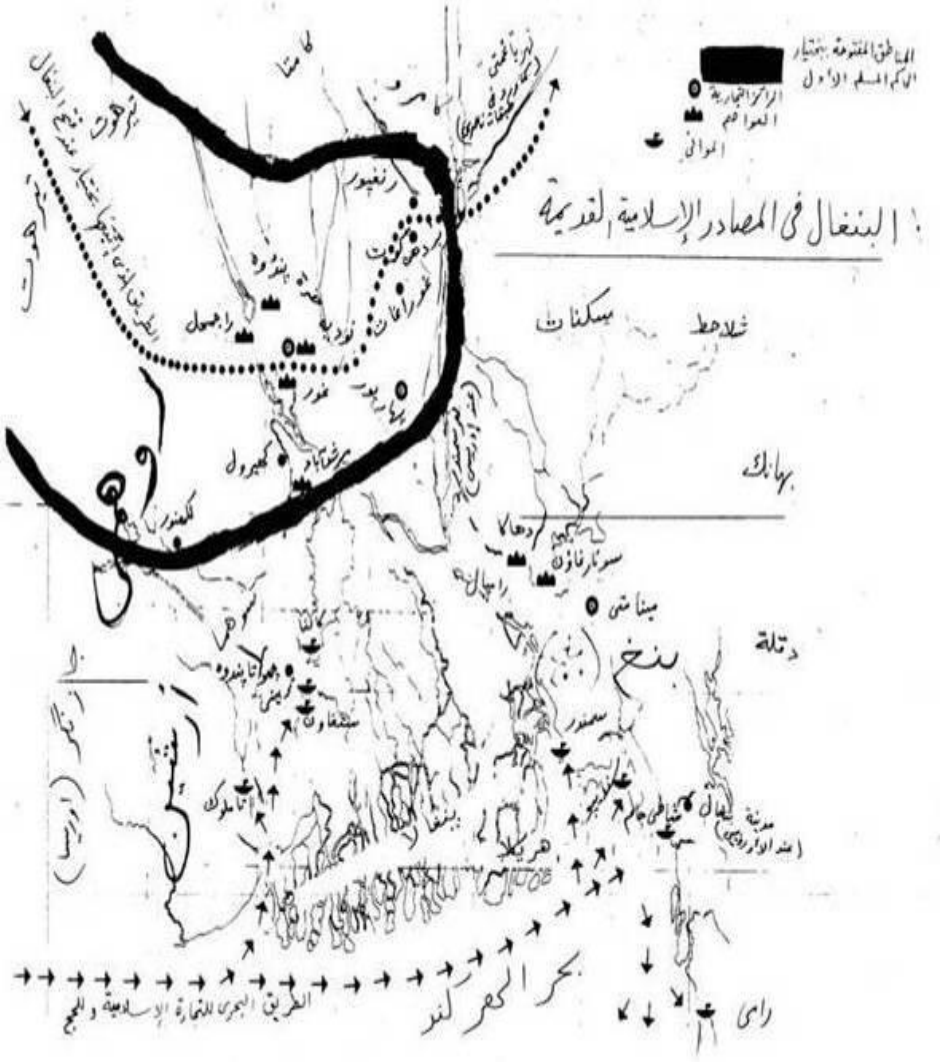

النهضة الفنية والمعمارية في البنغال إبان الحكم الإسلامي:

كان لدخول الإسلام إلى البنغال أثره الكبير في الحياة الثقافية والفنية والعمرانية وكذلك الصناعية والاجتماعية في تلك البلاد، وأكبر شاهد على ذلك تلك المساجد والمدارس والجسور والقلاع والقصور والأضرحة التي شيدها سلاطين البنغال وحكامها والتي بلغت درجة كبيرة في الإتقان والجودة، وقد ازدهرت العمارة والفنون في تلك الفترة وصبغت بصبغة إسلامية، ومن الروائع الأثرية الإسلامية البنغالية التي ما تزال البلاد تحتفظ بها حتى يومنا هذا تلك النقوش العربية التي تحمل أكبر مظهر للحضارة الإسلامية في البنغال وخاصة لندرة التحف الأثرية الأخرى، ولما كانت معظم هذه النقوش موجودة في العمائر الإسلامية في البنغال كان لا بد أن نتعرف أوّلاً على العمائر الإسلامية في تلك البلاد.

إنه ما من شك أن العمائر الإسلامية في البنغال كانت قد تأثرت بأساليب العمائر الإسلامية في وسط آسيا وإيران، فقد كانت البنغال ترتبط مع تلك البلاد بعلاقات تجارية، ولا يخفى أثر ذلك على التبادل الحضاري بين البلاد، كما يؤثر عن سلاطين البنغال تشجيعهم للفنون والفنانين حيث قاموا باستقدام الكثيرين من الفنانين المسلمين من بلاد فارس وتركستان، لكن العمائر الإسلامية البنغالية حافظت في الوقت نفسه على بعض عناصر الفن المعماري المحلي مما جعلها متميزة عن مثيلاتها في البلاد الأخرى، فاستخدام القباب في المساجد على سبيل المثال كان من عناصر الفن المعماري المحلي، وبالرغم من أن العديد من المساجد في مدينتي گوڑ وپنڈوه تضمنت عناصر معمارية إسلامية كانت معروفة في بلاد إيران وتركستان وأفغانستان وغيرها إلا أنها تميزت بكثرة استخدام القباب للتسقيف بأشكال متنوعة، فمسجد شات غنبد والذي شيده خانجهان في عهد السلطان أبي المظفر محمود شاه كان يحوي ستين قبة، وكانت القباب تبنى بتصاميم مختلفة كالأشكال البصلية أو المروحية أو المدببة أو الناقوسية، كما استخدمت القباب الضحلة والصغيرة للتسقيف وقد يكون السقف أحيانا عبارة عن قبة واحدة كبيرة، وامتازت العمائر الإسلامية في البنغال بشكل عام بكونها أقل فخامة وروعة من مثيلاتها من العمائر الإسلامية في البلاد الأخرى حيث تميزت بخلوّها من الأحجار الكريمة وكذلك ببساطتها ولكن مع بديع تخطيطها وزخارفها.

واتجه المسلمون في البنغال إلى استخدام الدعائم أكثر من الأعمدة في حالة توفر الأحجار، وكان الملوك والسلاطين يحبّذون استخدام الأحجار

لكونها تضمن تخليد ذكراهم لمدة طويلة، ولم يتردد هؤلاء عند عدم توفر الأحجار في مكان ما أن يستخدموا الكتل الحجرية المجلوبة من العمائر الهندوكية القديمة، فمتحف أبحاث ورندره بمدينة راجشاهي مثلا يحتفظ بمحراب من عصر السلاطين يوجد في الجهة الخلفية منه أشكال لكائنات حية وهي عبارة عن تماثيل هندوكية، فما من شكّ في أنه كان قد جلب من أحد المعابد الهندوكية القديمة.

ونلاحظ أن العمائر الأسلامية قد روعي في بنائها المؤثرات الجوية والمناخية المختلفة، فنجد أن الواجهة الخارجية لبعض هذه العمائر قد بني بالأحجار لمقاومة الرطوبة في موسم الأمطار، بينما استخدم الآجر في الواجهة الداخلية، ولما كانت الأمطار تهطل بغزارة في تلك البلاد كان هناك اتجاه إلى بناء السقوف على شكل مائل للتخفيف من الأثر الذي يحدثه سقوط الأمطار المتواصل عليها، حيث تنساب المياه على السقوف المائلة كما هو معلوم بيسر وسهولة، واستخدم أيضا السقف الجمالوني في بعض العمائر وهو يحمل سمات الكوخ حيث يتكون من سقف مائل له منحدران متعاقبان في جميع جوانبه بحيث يكون المنحدر السفلي في بعض الأحيان أكثر ميلا من المنحدر العلوي.

وقد تجنّب الفنانون المسلمون بناء التماثيل واستخدام صور الكائنات الحية في زخارفهم وأعمالهم الفنية المختلفة، وذلك لتحريم الإسلام لمثل تلك العناصر، لذلك نجد أن الزخرفة النباتية والهندسية تغلب على الزخرفة الحيوانية، ومع ذلك فقد وجدت بعض المنمنمات التي تمثل بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك البلاد، ومناظر للبلاط الملكي ومناظر المبارزة في ميدان الحرب وكذلك بعض المناظر الخيالية المختلفة، وتحتفظ المكتبة البريطانية بلندن بمخطوطة ثمينة ترجع إلى عهد السلطان نصرت شاه وتعرف باسم اسكندرنامة، وقد كتبت هذه المخطوطة الثمينة باللغة الفارسية، وتحتوي على قصة عاطفية للاسكندر الأكبر [1]، وهي غنية بالمنمنمات الملوّنة التي تظهر بجلاء تأثير المدرسة الفنية الإيرانية، وأغلب الظن أن الفنانين في ذلك العصر كانوا يفضّلون استخدام الألوان المائية إذ يندر وجود رسوم زيتية من ذلك العصر.

وتقدمت في العصر السلطاني أيضا صناعة المنسوجات، وقد أشار إلى ذلك الرحالة الشهير ابن بطوطة حين تحدث عن المنسوجات البنغالية النفيسة، كما أطلق على منسوجاتها القطنية الرقيقة اسم موصلين أو موسلين نسبة إلى مدينة الموصل في العراق والتي اشتهرت في القرون الوسطى

بمنتجاتها القطنية المعروفة باسم موصلين [2]، وبرع الفنانون المسلمون بالبنغال في الأعمال الخشبية والمعدنية والزجاجية، أما صناعة السجاد فلم تصل إلى درجة كبيرة من الإتقان ولذلك فإن البنغال كانت تستورد السجاد من كشمير وإيران ووسط آسيا.

ومن اليسير أن نتعرف على تاريخ النهضة المعمارية الإسلامية في الهند والبنغال منذ تأسست الدولة الإسلامية فيها حيث لا يزال الكثير من تراثها المعماري محفوظا بالرغم من الإهمال الذي لحق هذا التراث في بعض الأزمنة، وقد بدأت هذه النهضة منذ بداية الفتح الإسلامي للبلاد، فالفاتح العظيم قطب الدين أيبك والذي فتح وسط الهند وشرقها لأول مرة واتخذ دلهي عاصمة له قام بالكثير من الإنشاءات المعمارية على الرغم من قصر فترة حكمه، ولا تزال بعض منشآته العظيمة مثل مسجد قوة الإسلام وقطب منار بنقوشها الكتابية الرائعة تستهوي قلوب الناس من كل مكان.

ثم تبعه في نهجه الحكام الذين الذين جاءوا من بعده، فاهتموا ببناء العمائر الدينية والمدنية والعسكرية في مختلف أنحاء البلاد، وكان بابر مؤسس الحكم المغولي في الهند ذا شغف كبير وتذوق رفيع في ميدان العمارة والفنون، فقد عاش في سمرقند وهراة وكابل وغيرها من المدن التي كانت تعتبر من أهم المراكز الثقافية والفنية في عصره، فتعرّف على الحركات المعمارية والفنية التي كانت سائدة في تلك المدن آنذاك، وتعرّف أيضا على العديد من الفنانين الذين شاركوا في إنشاء هذه المراكز الفنية، غير أن حياته الشاقة لم تتح له فرصة تعمير البلاد أو القيام بأعمال ضخمة في الميدان المعماري والفني، ومع ذلك فقد قام بإنشاء بعض العمائر في المدن التي فتحها وعاش فيها، وكذلك أقام عددا من البساتين والحدائق في الهند، حيث عرف بحبّه للطبيعة ومناظرها الجميلة، ومن الحدائق التي أنشأها حديقة چهار باغ في ضواحي آگره يحاكي بها مغاني كابل التي طالما ترنّم بذكرها[3]، ولما كانت فترة حكمه للهند قصيرة لم يصل إلى أيدينا من تلك الفترة إلا القليل من النقوش الكتابية وهذه النقوش القليلة عثر عليها في منطقة البنجاب وهريانة ودلهي وهي تسجل في نصوصها إنشاء مساجد ومدارس وقلاع وجسور- كلها تدلّ على مدى النشاط المعماري في تلك الفترة.

وخلف بابر ابنه همايون الذي لم يحكم الهند إلا لفترة قصيرة، ولذلك لم يترك لنا هو الآخر الكثير من الأعمال الفنية أو المعمارية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحياة الفنية والثقافية في تلك البلاد قد صبغت بالصبغة الإيرانية

بعد عودة همايون من منفاه في إيران، حيث دعا همايون كثيرا من الفنانين الإيرانيين للعمل في البلاط المغولي، أما أثناء إقامة همايون في المنفى فقد كان يحكم البلاد شيرشاه سوري زعيم الأفغان، وقد أنشأ شيرشاه في تلك الفترة الكثير من المدارس والمساجد والقلاع والعمائر المدنية، ويعتبر ضريحه الذي أنشئ في سهسرام من الروائع الفنية المعمارية في تلك الفترة.

وخلف همايون ابنه أكبر والذي اشتهر بعنايته الفائقة بالعمارة والفنون، وكان بناؤه لمدينة فتح پور سكرى من أعظم الإنجازات التي حقّقها، وقد جعلها عاصمة له بدلا من مدينة آگره، وبنى فيها جامعا كبيرا وقصورا عديدة وأنشأ مقبرة سليم چشتي[4]، واستخدم الحجر الأحمر والرخام في بناء العمائر المختلفة، غير أن هذه المدينة فقدت مجدها بعد انقضاء فترة حكم أكبر إذ كانت عاصمة لمدة أربعة عشر عاما فقط وذلك أثناء حكمه ثم سرعان ما تحولت إلى مكان مهجور، وهي الآن من أهم المراكز السياحية الأثرية في الهند [5]، وتعتبر مباني وعمائر هذه المدينة خير شاهد على استخدام كثير من العناصر المعمارية الهندية الإسلامية مثل الدعائم والأقواس والقباب وغيرها، وكان يحيط بالمدينة من ثلاث جهات سور كبير طوله خمسة كيلومترات، أمّا من الجهة الرابعة فتطلّ على بحيرة صناعية تعتمد على حجز المياه عن طريق سد قائم عند أحد جوانبها، ومن العمائر الفخمة في هذه المدينة الديوان العام وقوامه خمسة طوابق مدرجة تضيق كلما صعدت إلى أعلى المبنى، وكان هذا الديوان يحتوي على مائة وعشرين ديوانا منها الديوان الخاص بالاستقبالات الملكية وهو بناء مربع من طابقين له أربعة أبواب وأعمدة مزينة بالمقرنصات، ويشتمل القصر على أربع قباب صغيرة، وقد استخدم الحجر الأحمر وأحيانا الرخام في بناء مدينة فتحپورسكرى.

وخلف أكبر ابنه جهانگير وكان كأبيه محبا للفن والفنانين، وأقيمت في عهده العمائر المختلفة وخاصة الأضرحة والمقابر لأفراد أسرته، ومن أشهر هذه المقابر مقبرة اعتماد الدولة بمدينة آگره، وتعتبر مقبرة جهانگير في مدينة لاهور من الإنجازات الفنية والمعمارية الرائعة، واهتم جهانگير أيضا بإنشاء الحدائق وتنسيقها، وكان يزوّدها بنباتات وأشجار لم تكن معروفة في الهند، ويعتبر عصره فترة انتقال من استخدام الأحجار إلى استخدام الرخام في العمائر.

ثم خلف جها نگير ابنه شاهجهان وكان من أشهر أباطرة المغول في تذوقه الرفيع للفن وخاصة في مجال العمارة، وقد أنفق الأموال الطائلة التي

ورثها عن آبائه في تجميل البلاد، فقام ببناء الكثير من المنشآت المعمارية الفخمة في مدينتي آگره ودلهي، ومن أهم تلك المنشآت المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء في مدينة دلهي، ولكن أروعها جميعا هو ذلك المثوى الفخم الذي يعرف باسم تاج محل والذي أقامه تخليدا لذكرى زوجته ممتاز محل، ويعتبر تاج محل من عجائب الدنيا لروعته وبهائه[6] .

وجاء من بعده ابنه أو رنگزيب الذي وصلت رقعة البلاد في عهده إلى أقصى حدودها، وقد شغلته الحروب عن الاعتناء بالنشاطات المعمارية والفنية، وكان اورنگزيب متدينا وعالما يحب الأدب والعلوم الدينية وكان زاهدا متقشفا في حياته الخاصة وفي دولته، لذلك اتّسم فن العمارة في عهده بالبساطة وعدم استخدام الزخارف الكثيرة.

العواصم القديمة والمراكز الحضارية والثقافية في البنغال:

أ. مدينة گوڑ:

أنشأ المسلمون عددا من المدن والمراكز والعواصم في البنغال بعد دخولهم لها، وتجد وصف هذه المدن والعواصم في المؤلفات القديمة وفي كتب الرحّالة، وتعتبر مدينة گوڑ المدينة الأولى التي اتخذها المسلمون عاصمة لهم في البنغال، وقد ورد ذكر هذه المدينة في مؤلفات القرون الوسطى باسم لكهنوتي [7]، وتشير بعض المصادر إلى أن هذه المدينة كانت موجودة قبل فتح المسلمين لها، فقد كانت عاصمة للأسرة الملكية البوذية پالی ومن جاء بعدهم، وإن كان لا يوجد بين أيدينا أيّ دليل مادي على ذلك إلا أننا نجد عند دراستنا للمواد البنائية في بعض العمائر الإسلامية أنّ بعض أحجارها يحمل رسوما وأشكالا هندوكية مما يدل دلالة قاطعة على أن هذه الأحجار كانت قد جلبت من عمائر هندوكية بنيت في عصور ما قبل الفتح الإسلامي للبنغال، وهذا يدل أيضا على أنه كانت هناك حضارة مزدهرة في تلك المدينة في الفترة التي سبقت دخول الإسلام إلى البنغال.

وتقع مدينة گوڑ على خط عرض 54.24 شمالا وعلى خط طول 88.8 شرقا وكانت تعتبر جزءا من مقاطعة مالدهة [8] إبان فترة الاستعمار الإنكليزي، وبعد استقلال الهند وباكستان في عام 1947م انقسمت گوڑ إلى قسمين حيث كانت تقع على الحدود بين الدولتين فكان قسم منها في ولاية البنغال الغربية والقسم الآخر في باكستان بمنطقة البنغال الشرقية والتي تعرف ببنغلاديش حاليا، وعلى الرغم من هذا التقسيم السياسي فإن معظم مساحة هذه المدينة يقع في ولاية البنغال الغربية، واختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة فيرى السيد أليكزندر كنغهام Sir Alexander Cunningham أن گوڑ كلمة مشتقة من گوڑه وهو اسم لقبيلة كانت تسكن في تلك المنطقة [9]، وجدير بالذكر أن بعض ملوك أسرة بال قد تلقبوا بلقب گوڑيشر ويعني هذا اللقب حاكم گوڑ أو ملك گوڑ الأمر الذي يدل على أن هذه المدينة كانت معروفة باسم گوڑ حتى قبل فتح المسلمين لها، ويظن أيضا أن اسم گوڑ مشتق من كلمة گوڑ في اللهجة المحلية وتطلق على السكّر الريفي الأحمر الذي ينتج في تلك المناطق بكثرة.

وقد ورد ذكر هذه المدينة في كثير من كتب الرحالة في القرون الوسطى، مثال ذلك ما كتبه المؤلف ال پرتغالي فارياسوزا [10] حيث وصف مدينة گوڑ بأنها كانت من أهم مدن البنغال التي تقع على شاطئ نهر غنغا

وهي محاطة بالأسوار وشوارعها واسعة توجد على جانبي الشوارع سلسلة من الأشجار[11]، وقد زار المدينة في عهد السلطان محمود شاه الثالث دي باروس De Barros وكانت آنذاك تكتظ بالسكان الذين بلغ عددهم حوالي مائتي ألف نسمة، وفي عام 1683 م زار المدينة ويليام هيدج William Hedge ووجد معظم عمائرها في حالة جيدة، وزار المدينة أيضا روبن بارو في عام 1787م ولكنه وجد معظم معالمها أطلالا بالية، أما الرحالة العربي ابن بطوطة فإنه لم يزر گوڑ مع العلم بأنه زار كثيرا من مدن البنغال الأخرى.

وتبلغ مساحة مدينة گوڑ حوالي عشرة أميال طولا وميل ونصف الميل عرضا كما ورد في المصادر التاريخية القديمة، وكانت تقع على شاطئ نهر غنغا، وقد بنى الحكام المسلمون على هذا الشاطئ سدا لمنع المياه من التسرب إلى المدينة، ولكن مجرى النهر تغيّر مع مرور الزمن مما أدى إلى انتشار الأمراض بين سكان المدينة، وانتقلت العاصمة بذلك إلى پنڈوه لمدة مائة عام تقريبا، ثم عاد الحكام بعد ذلك إلى گوڑ واستمر ذلك حتى عام 1565م حين نقل سليمان قراني عاصمة البنغال من گوڑ إلى تانده، وتشير بعض المراجع القديمة إلى أن گوڑ كان لها مداخل ضخمة وأشهرها داخل دروازة أي باب الدخول وكان ذلك المدخل يحتوي على نقش عربي من العصر السلطاني، وقد شيدت في هذه المدينة مساجد كثيرة ذات عناصر معمارية رائعة، مثال ذلك المسجد الذهبي الكبير والمسجد الذهبي الصغير ومسجد جمكتي ومسجد لتن، وقد عثر في كل من هذه المساجد على نقوش عربية تحوي في نصوصها تاريخ الإنشاء واسم السلطان الذي أمر ببنائها كما تحوي كثيرا من المعلومات التاريخية الهامة، ويعتبر المسجد الذهبي الكبير من أكبر هذه المساجد ولعله سمي بذلك لأن زخرفته غنية بالطلاء الذهبي ويقال أيضا أن قباب هذا المسجد كانت مدهونة باللون الذهبي وكانت تعكس ضوء الشمس في النهار وضوء القمر في الليل[12].

وأنشئ في هذه المدينة العديد من الجسور وذلك على القنوات التي كانت تربط بين نهر غنغا وبركة كبيرة تسمى جهيل ساغر، وقد عثر على نقش عربي عند أحد هذه الجسور والذي كان قد أنشئ في عهد السلطان ناصر الدنيا والدين محمود شاه الأول سنة 862هـ/1458م، وبني هذا الجسر على نظام المداميك وله خمسة عقود، وكذلك عثر على نقش في منارة فيروز شاه والتي اشتهرت بطرازها الفني الجميل، غير أنه لم يبق منها اليوم سوى خرائب، والنقش الذي وجد فيها كان قد حمله فرانكلين إلى بريطانيا ولا يزال محفوظا في المتحف البريطاني بلندن.

وعلى الرغم من الازدهار والتطور اللذين شهدتهما مدينة گوڑ في القرون الوسطى إلا أن المدينة قد مرت في العصور المتأخرة بالعديد من الكوارث، ونقل كثير من موادها البنائية من عمائرها القديمة إلى كلكتا وغيرها من المدن الأخرى، وتهدمت عمائرها واحدة بعد الأخرى حتى أضحت أطلالا لايسكنها أحد، وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري أصدر الحكام البريطانيون المستعمرون قرارات بشأن صيانة الأماكن الأثرية في الهند واهتمت حكومتهم بمدينة گوڑ حيث قاموا بترميم بعض عمائرها المتهدمة، وتهتم بها حاليا دائرة الآثار في الهند وبنغلاديش.

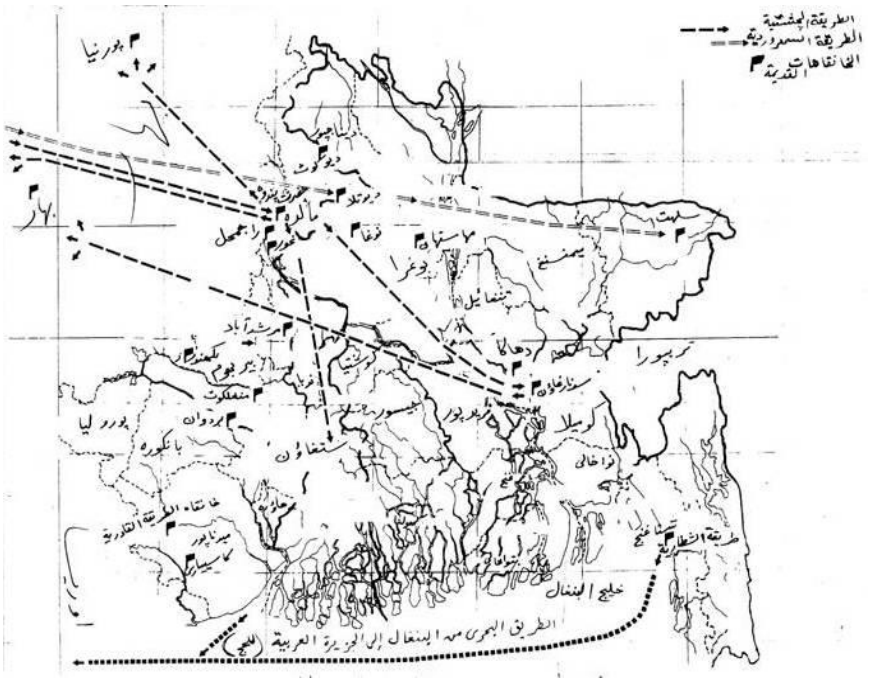

ب. مدينة پنڈوه Pandua:

تقع مدينة پنڈوه في مقاطعة مالدهة بالبنغال الغربية في الهند، وتبعد عن مدينة گوڑ عشرين ميلا فقط، وتعتبر أهم الأماكن الأثرية من عهد السلاطين في البنغال، وقد اتخذها المسلمون عاصمة لهم بعد أن هجروا عاصمتهم الأولى گوڑ وذلك في عام 743هـ/1342م، واشتهرت هذه المدينة وذاع صيتها وخاصة في أيام السلطان إلياس شاه وكان ملكا عظيما قويا، وعرفت هذه العاصمة أيضا باسم فيروزأباد عند المؤرخين المسلمين ولعل ذلك يرجع إلى أن السلطان فيروزشاه الأول كان قد اتخذها عاصمة له

قبل وصول السلطان إلياس شاه للحكم بحوالي ثلاثين سنة، وقد شاهد عابد عليّ خان في هذه المدينة بعض الآثار التي ترجع إلى الفترة الهندوكية، وهو يرى أن تأسيس هذه المدينة يرجع إلى فترة ما قبل حكم المسلمين لها وأن أصل كلمة پنڈوه يرجع إلى أرجون پنڈوه وكان ملكا هندوكيا قد حكم تلك المنطقة، وورد ذكر اسم هذه المدينة في القيدا وهو الكتاب المقدس عند الهندوس، كما تكلم عن هذه المدينة بعض الرحالة الصينيين ومنهم ما هوان الذي زارها في عهد السلطان غياث الدين أعظم شاه عام 809هـ/1406م وسجل في مذكّراته أن هذه المدينة كانت مزدحمة بالسكان وتحيط بها الأسوار من كل مكان، وتوجد في داخل المدينة العمائر السكنية والقصر الملكي وأن معظم سكانها من المسلمين [13]، وزارها أيضا أحد أعضاء الوفد الصيني الذي بعث به الملك يونغ إلى والي البنغال سنة 819هـ/1416م ويدعى في شين، وقد سجل بعض المذكرات الثمينة عن پنڈوه في مؤلفه Sing Cha Shenglan يقول فيه:"إن أسوار المدينة ذات أسلوب معماري رائع وأسواقها أيضا جميلة فمحلاتها مصطفّة الواحدة بعد الأخرى، وقد أقيمت دعائم عمائرها بطريقة منتظمة تزيد تلك العمائر بهاء وروعة، وتوجد في أسواقها البضائع المختلفة، وقد بني القصر بالطوب والخرسانة الحمراء (مخلوط الجير ومسحوق الطوب) على نظام المداميك، ودرج القصر واسع وعال أما الصالة فهي مربعة الأضلاع وسقفها مدهون باللون الأبيض، ويحتوي القصر على تسعة بيوت ملكية وثلاثة مداخل، أما الدعائم فهي مدهونة بلون النحاس ومزخرفة بالأشكال النباتية والحيوانية، ويوجد في القصر العديد من الشرفات المسقوفة الطويلة، ويمكن أن يجتمع فيها آلاف من الناس" [14]، ووصف لنا أيضا مراسيم التشريفات ومنظر البلاط الملكي والحياة الاجتماعية في مدينة پنڈوه، ولم يتكلم في مذكراته إلا عن المسلمين، ولعلّ ذلك يرجع إلى أن أغلبية سكان المدينة كانوا من المسلمين، وقد نقل في شين معه هدايا من السلطان جلال الدنيا والدين محمد شاه للملك الصيني.

ومدينة پنڈوه كما ذكرنا سابقا تقع الآن في مقاطعة مالدهة بالبنغال الغربية في الهند، ويضاف إلى اسم پنڈوه أحيانا كلمة حضرت حتى تتميز عن مدينة تقع في مقاطعة هوغلي ويطلق عليها أيضا اسم پنڈوه، وهناك من يرى أن كلمة حضرت تستخدم على سبيل التعظيم حيث دفن في هذه المدينة كثير من أولياء الله والشيوخ والذين نجد ذكرهم في بعض المصادر القديمة، وقد تكلم شيام برساد في مخطوطته عن وجود قبر حضرت قطب العالم أحد أقطاب الصوفية في مدينة پنڈوه، وقد أقيم على قبره ضريح عظيم يزوره الناس من كل مكان، وكان أهل پنڈوه يقيمون حفلة دينية حول هذا الضريح

كل عام يسمّونها عرسا، وكانوا يقدمون الطعام لزوار الضريح، وهذا كما هو معلوم مخالف لتعاليم الإسلام، وقد أنشئ في هذه المدينة الكثير من العمائر الفاخرة والمساجد الفخمة والقلاع والقصور والأسوار، ولكن لم يبق منها إلا القليل، ويعتبر مسجد أذينة في پنڈوه من أكبر المساجد في البنغال وأحسنها وتبلغ مساحته حوالي 320 x 530 قدما، ووجد في هذا المسجد نقش بتاريخ 776هـ الأمر الذي يشير إلى أن المسجد كان قد شيّد في عهد اسكندر شاه، ويعتقد أن المواد الحجرية التي استخدمت في بناء المسجد كانت قد جلبت من العمائر الهندوكية القديمة والمهجورة حيث إنها منقوشة بالرسوم والأشكال ذات العناصر الزخرفية الهندوكية [15]، ومن المؤسف أن هذا المسجد أهمل إهمالا شديدا فيما بعد حتى تحولت معظم أجزائه إلى أطلال، وكذلك تزودنا المصادر التاريخية المختلفة بمعلومات عن المساجد والعمائر الأخرى والتي كانت تزيّن هذه المدينة في عصرها الذهبي، وما تزال حتى يومنا هذا بعض معالم هذه المساجد مثل المسجد الذهبي ومسجد اكلاكهي، وكذلك شارعها الرئيس والذي كان يقطع المدينة في الوسط، وكان عرضه يتراوح بين 12 و 15 قدما، وكانت معظم العمائر والمباني تقع على جانبيه، وقد اندثرت معظم مباني هذه المدينة بمرور الزمن ولم يبق منها إلا القليل من الآثار كضريح شاه جلال والمسجد الجامع وغرفة المخزن ومطبخ يعرف باسم تنور خانة والمدخل الكبير.

ج. مدينة دهاكا:

تعتبر مدينة دهاكا من العواصم الإسلامية القديمة والتي ما تزال معمورة حتى يومنا هذا، واسم دهاكا يطلق أيضا على المقاطعة التي تقع فيها هذه المدينة، وتشمل هذه المقاطعة أيضا سونارغاؤن وبكرمبور واللتين كانتا عاصمتين في عصور مبكرة، فمدينة بكرمبور كانت عاصمة لأسرة ملكية هندوكية تدعى بنوسين وذلك قبل وصول المسلمين إليها، وتوجد فيها بعض الآثار من أسوار وقلاع وقصور ترجع إلى الفترة الهندوكية [16]، وبعد فتح المسلمين للأجزاء الشرقية للبنغال أعلن بعضهم الاستقلال عن العاصمة گوڑ واتخذوا بدلا منها مدينة سونارغاؤن وهي تقع في مقاطعة دهاكا أيضا، وتوجد فيها بعض الآثار الإسلامية التي ترجع إلى الفترة السلطانية كالمساجد والقلاع والقصور [17]، وقد زار هذه المدينة الرحالة ابن بطوطة في عام 746هـ/1345م، وسافر منها بحرا إلى جاوا بأندونيسيا، وقد اشتهرت هذه المدينة ـ كما بينا في فصل سابق ـ بإنتاج القماش الشهير باسم موصلين، وقد عثر على كثير من النقوش العربية الكتابية في سونارغاؤن والمناطق المجاورة لها في مقاطعة دهاكا، أما مدينة دهاكا الحالية فمعظم الآثار

المتبقية فيها ترجع إلى عهد المغول، حيث اتخذها المغول عاصمة لهم لفترة طويلة إلى أن قدم المستعمرون البريطانيون إلى تلك البلاد.

الألقاب الواردة في النقوش الإسلامية في البنغال:

لعل من أبرز المظاهر في نصوص النقوش العربية في البنغال هي تلك الألقاب التي كثيرا ما ترد في النقوش التذكارية في تلك الفترة، والواقع أن دراسة هذه الألقاب أمر على جانب كبير من الأهمية في عملية دراسة النقوش، ذلك أنها تمدنا بالكثير من الحقائق التاريخية، ولما كانت البنغال بلادا شاسعة مترامية الأطراف في الأزمنة القديمة، فقد عثر فيها على المئات من النقوش والكتابات الأثرية الإسلامية ، والتي تحوي عددا كثيرا من الألقاب، لذا كانت هذه الدراسة مرجعا لا يستغنى عنه في حقل التاريخ والآثار وخاصة فيما يتعلق بالبنغال .

والألقاب تمدنا بالكثير من المعلومات التاريخية عن سياسة البلاد والأحوال الاجتماعية والدينية والاقتصادية والإدارية فيها، فهي تشير إلى سياسة الحاكم وعقيدته الدينية، وتسلط الضوء على كثير من جوانب حياته، وتعبر عن آماله وطموحاته، وتشير أحيانا إلى اتساع رقعة بلاده وامتداد حدودها.

وكانت معظم الألقاب قبل العصر المغولي تكتب باللغة العربية، وبعد قدوم المغول إلى البنغال كثر استخدام الألقاب الفارسية، مما يدل على تأثر المغول بالثقافة الإيرانية آنذاك.

ولما كانت السلطة العليا في البلاد بيد الإمبراطور المغولي بدلهي، كان لا بد أن يذكر اسمه مصحوبا بألقابه في النقوش حتى لو كان النقش في أقصى حدود البلاد مثل البنغال، فإن خلو النقش من ذكر اسم السلطان أو ألقابه كثيرا ما كان يفسر على عدم استقرار حكم ذلك السلطان في تلك المنطقة، وبلاد الهند كانت في تلك الفترة مقسمة إلى عدة ولايات، وكان الإمبراطور مسئولا عن تعيين ولاتها، وكثيرا ما كان يعين الإمبراطور الولاة من أبنائه حتى تتحكم سلطة الأسرة الملكية في المناطق البعيدة وتضمن ولاءها له، وفي الوقت نفسه كان هذا التعيين بمثابة مرحلة تدريبية لإعدادهم لحكم البلاد في المستقبل، فالأمير شاه شجاع ابن الامبراطور شاهجهان كان قد عُين واليا على البنغال لمدة طويلة، ولما كان ينتمي إلى الأسرة الملكية فقد لقب بألقاب فخمة في نقوشه في البنغال ،يشير معظمها إلى طموحه وتطلعه إلى تولي السلطة العليا بدلهي.

ونرى أيضا أن بعض الأمراء وولاة المناطق والذين ينحدرون من الأسرة الملكية كانوا يفضلون البقاء في دلهي العاصمة خشية أن يحرموا من فرصة توليتهم على العرش، ولذلك كان هؤلاء الأمراء يرسلون نوابهم إلى المناطق البعيدة ليشرفوا على حكمها نيابة عنهم، فعلى سبيل المثال قام الإمبراطور شاهجان بتعيين أكبر أبنائه الأمير دارا شكوه واليا على البنجاب وما حولها، لكن الابن كان يعيش مع أبيه في آگره ويبعث مندوبا عنه لحكم الولاية.

وفي الجانب الآخر فقد كان هناك عدد كبير من الولاة لا ينتمون إلى الأسرة الملكية، وكان تعيينهم يتم لصلاحيتهم ومكانتهم العلمية وكفاءتهم الإدارية، وفي معظم الأحوال كانت فترة تعيينهم لا تتجاوز أكثر من ثلاث سنوات، فتضعف بذلك فرصتهم للاستقلال بالولاية عن الحكومة المركزية، وقد تطول فترة التعيين أحيانا لأسباب خاصة، فشايسته خان مثلا كان قد عُين واليا على البنغال قرابة اثنتين وعشرين سنة لعلاقته الطيبة بالأسرة الحاكمة.

ومن الملاحظ في ذلك العصر أن النقوش التي وجدت في البنغال تحتوي ألقابا كثيرة للولاة والأمراء والموظفين الكبار في المنطقة نفسها، غير أن هذه الألقاب كانت أقل بكثير من تلك التي وردت في الفترة السلطانية في هذه المنطقة، ولعل ذلك يرجع إلى الوضع السياسي السائد في العصر السلطاني ،والذي يختلف بنوعه عن العصر المغولي فالبنغال كانت قبل ذلك دولة مستقلة يحكمها سلاطين أقوياء، ثم تلا ذلك فترات أصبحت فيها ولاية من الولايات المغولية التابعة لدلهي، ونتيجة لذلك تقلص نشاطها السياسي والعمراني، وفقدت مجدها السابق الذي كانت تتمتع به كدولة مستقلة وانعكس ذلك على نوع الألقاب أيضا، حيث بدأت تخلو من العبارت الفخرية والفخمة، ومن الطبيعي أن الولاة والأمراء أوكبار الموظفين الذين كانوا يعينون عادة من دلهي لم يكن من شأنهم أن يخلعوا على أنفسهم ألقابا كتلك التى كان يستخدمها سلاطين البنغال المستقلون، بل اتسمت ألقابهم في تلك الفترة بنوع من التواضع والزهد نسبيا، ومع ذلك فقد ظلت هذه الألقاب تمدنا بالكثير من المعلومات التاريخية والاجتماعية والسياسية عن تلك الفترة.

التقييم الأدبي للنصوص الواردة في النقوش الكتابية في العمائر الإسلامية:

من المعروف أن الكتابة على الأحجار والصخور كانت من أقدم الوسائل التي استخدمت للتعبير عما يخالج النفوس البشرية إذ كانت مواد الكتابة قليلة ومحدودة في الأزمنة القديمة، وكانت الكتابات تتضمن أساطير الناس وتاريخهم ومنتجاتهم الأدبية، حيث لم تكن هناك وسيلة أخرى لتخليد انتصاراتهم وتسجيل المظاهر المختلفة لحياتهم الاجتماعية، وكان الهنود من تلك الشعوب التي استطاعت بنجاح أن تستخدم الأحجار والصخور للكتابة فضلا عن توضيحها بالرسوم، وما نراه في كهوف أجنتا وألورا هو خير دليل على أن هذا الشعب استطاع أن يحدثنا عن تاريخه بالنقوش والرسوم منذ آلاف السنين، ولكن بعد أن عرف الناس الورق لغرض الكتابة أصبحت الكتابة على الأحجار مقصورة على أغراض معينة مثل كتابة اللوحات التذكارية بالمباني أو تسجيلها لأغراض زخرفية.

ولما دخل المسلمون بلاد الهند شاع استخدام الورق بفضل التجار المسلمين الذين كانوا يستوردونه من البلدان الأخرى، وأقبل الناس على استخدامه أكثر فأكثر، حيث كانوا يسجلون تراثهم التاريخي والأدبي عليه، بالإضافة إلى أن هناك عددا كبيرا من النقوش الحجرية كتبت في مناسبات عديدة، ومنها اللوحات التذكارية المنصوبة على العمائر المدنية والتي كانت تتضمن اسم المشيّد واسم السلطان المعاصر وتاريخ النقش، وكذلك النقوش الدينية في العمائر الدينية والتي كانت تحتوي على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعبارات الدعائية والدينية.

وهذه الأعداد الكبيرة من النقوش تسجل نصوصا عربية وفارسية كثيرة، ولم تكن هذه الكتابات عرضا لأساليب أدبية أو علمية، بل كانت محتوياتها في أغلب الأحيان مقتصرة على العبارات التي تتناسب مع إنشاء العمائر كتسجيل تاريخ الإنشاء واسم السلطان المعاصر والهدف من بناء العمارة وغيرها، ولهذه التسجيلات بدون شك قيمة كبيرة من الناحية التاريخية والفنية.

واستخدم الأسلوب النثري في تسجيل نصوص النقوش العربية، وفي معظم نقوش العمائر الدينية نجد أن النقاش يبدأ النص بآيات قرآنية كريمة ثم تليها الأحاديث النبوية الشريفة، أما نقوش المساجد في البنغال فلم تحتو على عبارات محددة في اختيار آية معينة من القرآن الكريم، بل كانوا يختارون آيات مختلفة مثل آية الكرسي أو بداية سورة المزمل ونحو ذلك، ونرى

أيضا في كثير من نقوش مداخل المساجد في البنغال ومناطق أخرى في الهند الآية الكريمة (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) سورة التوبة: 18، وجدير بالذكر أن هذه الآية الكريمة كثيرا ما ترد في نقوش مساجد البلدان الإسلامية الأخرى، أما بالنسبة للأحاديث النبوية الواردة في هذه النقوش فقد كان الحديث (من بنى مسجدا في الدنيا بنى الله تعالى له سبعين قصرا في الجنة) أكثرها استخداما من قبل النساخ والنقاشين في كتابة نقوش المساجد خاصة في البنغال، ويلاحظ أن معظم هذه النقوش تذكر ألقاب السلطان أو الوالي أو الحاكم الذي أمر بإنشاء العمارة.

أما أسلوب النظم الشعري فقليلا ما نجده في نصوص النقوش التي كتبت باللغة العربية، ومن بين هذه النقوش القليلة نقش ميانه در في مدينة گوڑ في البنغال والمؤرخ سنة 871 هـ/ 1466 م والذي يرجع إلى عهد السلطان باربكشاه في الفترة ما قبل الحكم المغولي، ومع أن نظم الأبيات في هذا النقش كان محاولة متواضعة في كتابة الشعر العربي إلا أنه يدل على مستوى الأدب العربي بشكل عام في تلك الفترة.

أما في الفترة المغولية فنقرأ في بعض نقوش البنغال من تلك الفترة أبياتا في وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه منها:

ناد عليا مظهر العجائب تجـــده عـــونا لك في النـــــوائب

كل هم وغم سينجـــــــلي بنبوتك يا محمد بولايتك يا علي

وهذه الأبيات تكرّر ذكرها في نقوش الهند بعد عودة همايون إلى دلهي من منفاه في إيران وبسبب ازدياد نفوذ العناصر الشيعية في البلاط المغولي، وجدير بالذكر أن هذه الأبيات التي تحمل الطابع الشيعي كانت شائعة بين الفنانين الشيعيين في إيران والبلدان المجاورة لها، ولا يخفى مخالفة المعاني الواردة في مثل هذه الأبيات لعقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام، والنقوش الفارسية لا تسجل شيئا هاما من النماذج الأدبية، غير أن الفنانين مالوا إلى استخدام الأبيات الشعرية أكثر من الأسلوب النثري في النقوش الفارسية في العصر المغولي، ومن النماذج الرائعة القليلة في الشعر الفارسي في تلك الفترة أبيات في نقش براكاترا والذي عثر عليه في مدينة دهاكا والمؤرخ سنة 1052 هـ/1642 م، وكذلك نقش ميدان مصلّى العيد(باللغة المحلية عيد گـاه ميدان) في دهان مندي المحلية بمدينة دهاكا، وجميع هذه المحاولات

تشير إلى تطور الحركة الأدبية باللغة الفارسية في الهند وخاصة في منطقة البنغال في ذلك العصر.

وإذا كانت معظم الأشعار الفارسية الواردة في نقوش الهند قد كتبت تبعا لأوزان بحور عربية مثل البسيط والرمل فإن هناك نماذج عديدة من الأشعار التي وضعت على أوزان بحور فارسية خالصة، كما أن هناك بعض النماذج من الأشعار التي لم تتبع أوزان البحور بدقة تامة.

ومن النماذج النثرية الرائعة والمكتوبة باللغة الفارسية نقشا شيربور مورجا والمؤرخان سنة 989هـ/1581م ويتحدث الكاتب فيهما عن أسباب إنشاء المسجد وقصة بعض الرجال الصالحين الذين قدموا من بلاد بعيدة واختاروا هذا المسجد لأداء العبادة، وقد كتب ذلك كله بأسلوب أدبي رائع، وجدير بالذكر أن اللغة الفارسية وهي اللغة الرسمية في عصر المغول كانت قد دخلت الهند عن طريق أفغانستان وليس عن طريق إيران مباشرة، لأن معظم جيوش المسلمين التي غزت الهند كانت من أفغانستان وبلاد ما وراء النهر وكانوا يتكلمون اللغة الفارسية المعروفة باسم اللغة الأردية وهي لغة تختلف قليلا عن الفارسية الإيرانية، غير أن لغة الأدب الفارسي كانت لغة واحدة لا تختلف من مكان إلى آخر.

إنه ليس من شك في أن بلاد الهند كان لها جهود طيبة في الأدب الإسلامي وأن أدباءها وشعراءها تركوا لنا تراثا غنيا باللغتين العربية والفارسية، غير أن براعتهم الأدبية لم تظهر في النقوش الكتابية لأن مجالها الضيق لم يسمح بإظهارها ولكنهم تركوا لنا مخطوطات كثيرة في علوم شتى كالعلوم التاريخية والجغرافية والقصص الأدبية فضلا عن السير والتراجم والعلوم الإسلامية، وهذه الحركة العلمية بدأت منذ أن دخل المسلمون السند في الأزمنة الأولى في نهاية القرن الثاني الهجري حيث ترجم كتاب عن تاريخ السند باسم چچ نامه من اللغة المحلية إلى اللغة العربية ثم ترجم إلى الفارسية، كذلك نظم الشاعر أبو العطاء السندي أشعارا كثيرة باللغة العربية، وترك لنا العالم اللغوي الكبير الإمام حسن بن محمد الصاغاني الهندي أعمالا أدبية هامة كثيرة، ولا تزال بلاد الهند تسهم في النشاطات الأدبية والعلمية المختلفة باللغتين العربية والفارسية.

الأحاديث الواردة في النقوش العربية في البنغال:

إن المتأمل في النقوش العربية في البنغال يلاحظ أن معظمها نقوش دينية تشتمل في كثير من الأحيان على أحاديث نبوية، غير أن من المؤسف أن نساخ تلك النقوش لم يتحروا الصحة والدقة في نقل متون الأحاديث في أكثر الأحيان.

ولما كانت أغلبية نقوش تلك الفترة تتعلق بالمساجد كان كثيرا ما يرد في هذه النقوش الحديث النبوي المشهور (من بنى مسجدا لله تعالى يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة- وفي رواية أخرى - مثله في الجنة)، وهذا الحديث مدرج في كتب الصحاح ومسند الإمام أحمد مع شيء من التقديم والتأخير في بعض ألفاظه، وقد ورد هذا الحديث أيضا في نقوش بعض المساجد في البلدان الإسلامية الأخرى، فنرى أنه ورد في بعض النقوش الدينية في مدينة إيدرينة في العصر العثماني كما ورد فيما يقرب من ستين نقشا من النقوش العربية المعروفة لدينا في بلاد البنغال، وتختلف ألفاظ هذا الحديث في معظم الحالات بالرغم من التشابه في معناها، وفي بعض الأحيان يختلف متنه عمّا ورد في الصحاح، وننقل هنا ما ورد في النقوش العربية البنغالية عن بعض هذه الأحاديث :

من بنى المسجد في الدنيا بنى الله سبعين قصرا في الجنة.

من بنى مسجدا في الدنيا بنى الله تعالى له سبعين قصرا في الجنة.

من بنى مسجدا في الدنيا بنى الله تعالى سبعين قصرا في الجنة.

من بنى مسجدا لله بنى الله له بيتا في الجنة.

من بنى مسجدا لله بنى الله له قصرا في الجنة مثله.

وهناك عدد قليل من الأحاديث الأخرى ورد في بعض النقوش العربية في بلاد البنغال، غير أن معظم هذه الأحاديث إما موضوعة أو ضعيفة يشك في صحتها، وهي كالتالي:

1. (من قرأ آية الكرسي لم يمنع من دخول الجنة) ورد في نقش مهاستان المؤرخ سنة 700 هـ.

2. (تعلموا العلم فإن تعلمه طاعة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وتحسينه لله مسرة) ورد في نقش مسجد ظفر خان المؤرخ سنة 698 هـ.

3. (خير البقاع مساجدها وشر البقاع أسواقها) ورد في نقش سلطان غنج المؤرخ سنة 835 هـ.

4. (عجّلوا بالصلاة قبل الفوت وعجّلوا بالتوبة قبل الموت) ورد في نقش مسجد عظيم نغر المؤرخ سنة 910 هـ.

5. (اطلبوا العلم ولو بالصين) ورد في نقش مدرسة فيروز بور المؤرخ سنة 907 هـ.

6. (من أنفق درهما على طلب العلم فكأنما أنفق جبلا من بر ذهب الأحمر في سبيل الله تعالى) ورد في نقش سلطان غنج المؤرخ سنة 835 هـ.

7. (إذا خرجت من بيتك يوم الجمعة فأنت مهاجر فإن مت في الطريق فأنت في الجنة في عليين) ورد في نقش ستغاؤن المؤرخ سنة 936 هـ.

8. (من آوى عالما آواه الله يوم القيامة وآله وأصحابه) ورد في نقش فيروز بور المؤرخ سنة 909 هـ.

9. (السعي مني والإتمام من الله تعالى) ورد في نقش ترييبني وهو غير مؤرخ.

الخاتمة

مما لا شك فيه أن البنغال من أغنى البلاد في النقوش الإسلامية في العصور الوسطى، وقد عثر على ما يقرب من ٤٠٠ نقش تقريباً تعود في تاريخها إلى الفترة ما بين 601 هـ و 945 هـ، وعلى الرغم من الأهمية التاريخية والحضارية لهذه النقوش فإن دراستها أهملت من قبل المؤرخين والباحثين. ومع أن هذه النقوش العربية لم تدرس في البلاد العربية فإن هناك من المستشرقين وكذلك بعض علماء البنغال من حاول دراسة بعضها من الناحية التاريخية والفنية .

ويحتمل أن تكون هناك نقوش محفوظة في مجموعات خاصة لهواة جمع النقوش، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكثير من هذه النقوش موجود حتى الآن في مكانه الأصلي، كما أن هناك نقوشا كانت قد نقلت من أماكنها الأصلية ونصبت فيما بعد على الأضرحة والمساجد في الفترات اللاحقة وهذا من أشق الأمور التي واجهتها في جمع المعلومات عن تلك النقوش.

ويلاحظ أن معظم هذه النقوش تتعلق بالمساجد، وهناك أيضا عدد لا بأس به من النقوش التذكارية التي تسجل إنشاء المدارس والقلاع والحصون والجسور والمداخل والأسبلة والأضرحة، ولا شك أن هذه كلها تشير إلى تقدم النهضة المعمارية والفنية في البنغال في تلك الفترة الإسلامية المبكرة.

وقد صنعت معظم اللوحات الحجرية من البازلت الأسود الكربوني الفحمي، وكان هذا النوع من الأحجار كثير الاستعمال بين الفنانين في البنغال منذ عهد ما قبل الإسلام حيث كانوا يستخدمونه في النحت على الأحجار مثل عمل المجسّمات والتماثيل وكذلك في بناء المنشآت المعمارية وكثير من الأعمال الفنية الأخرى، وجدير بالذكر أن بلاد البنغال أساسا ليست بلادا جبلية وقليلا ما توجد فيها الأحجار ولذلك كانت الكتلات الحجرية تستورد غالبا من راج محل عن طريق الأنهار التي تقع على حدود البنغال وبهار الحالية والتي لا تبعد كثيرا عن گوڑ وپنڈوه العاصمتين الإسلاميتين في العصر السلطاني، وكذلك فإن الفنانين لم يستخدموا الأحجار الكريمة في الكتابات الحجرية لندرتها في البنغال، وهناك عدد قليل من اللوحات المصنوعة من الحجر الرملي وهي محفوظة حاليا في المتحف الهندي بكلكتا ومتحف أبحاث ورندره براجشاهي.

ولم يعثر على أية لوحات كتابية خشبية ترجع إلى تلك الفترة مع أن بلاد البنغال غنية بالأخشاب، ويندر أيضا أن تجد نقوشا عربية على لوحات معدنية، وقد برع الفنانون في استخدام الكتابات العربية من الآجر، ويحتفظ المتحف الهندي بتحفة رائعة من هذا النوع غير أن التاريخ المحفور على الآجر في ذلك النقش ليس كاملا.

أما طريقة نحت الكتابات على الأحجار فأغلب الظن أن الفنانين والنحاتين كانوا يكتبون أولا على أرضية اللوحة بالحبر، ثم يحفرون أرضية اللوحة دون الأجزاء المكتوبة لتبرز الكتابة على اللوحة، وهذا ما نلاحظه في جميع هذه الكتابات حيث تجدها بارزة على اللوحات التي يحيط بها من جوانبها الأربعة الإطار والمستطيل.

أما اللوحات الكتابية التي استخدمت فيها الزخارف النباتية أو الهندسية من تلك الفترة فقليلة نسبيا، إلا أن بعض هذه اللوحات تشكل نموذجا رائعا لاستخدام العناصر النباتية في الزخرفة، وخير مثال على ذلك نقش باري درغاه المؤرخ سنة 640هـ ويمثل هذا النقش نموذجا رائعا لاستخدام العناصر النباتية كالزهور والأغصان والأوراق على أرضية الكتابة

متداخلة في الحروف، وقد عثر أيضا على لوحات نقشت إطاراتها بالزخارف النباتية بأسلوب جميل.

وكثيرا ما نرى الأخطاء النحوية واللغوية في نصوص هذه النقوش، ويرجع ذلك إلى عدم إلمام النقاش باللغة العربية حيث كانوا من غير الناطقين بالعربية، ونرى أيضا أن بعض الحروف أو الكلمات سقطت من الناسخ بسبب إهماله، وكذلك هناك تكرار لبعض الحروف أو الكلمات في بعض النقوش خاصة عند كتابة اسم الشهر خلال تسجيل التاريخ، فتقرأ مثلا في أحد النقوش شهر رجب رجب، وتحتوي النقوش البنغالية في تلك الفترة على كثير من الكلمات الفارسية حيث كانت اللغة الفارسية متغلغلة في الحياة الثقافية والاجتماعية في هذه البلاد.

ومن أهم المظاهر الفنية في هذه النقوش تلك الزخارف الكتابية العربية التي تميزت بالجودة والإتقان، والمتأمل للنقوش العربية يلاحظ أن الفنانين المسلمين في البنغال لم يتقيدوا باستخدام الخطوط التقليدية الشائعة مثل الخط الكوفي والنسخي والثلث بل استخدموا خطوطا أخرى لم تكن شائعة كالخط البهاري والمسلسل، وكذلك أضافوا إليها ابتكارات فنية جديدة، وبعبارة أخرى فإن الخطوط العربية قد نمت تحت تأثير العوامل المحلية في البنغال واتسمت ببعض الملامح الفنية الخاصة التي جعلتها متميزة عن الخطوط العربية التي كانت معاصرة لها في البلاد الإسلامية.

ومن أبرز المظاهر الزخرفية في هذه الكتابات إطالة أصابع الحروف القائمة إلى الأعلى بشكل منتظم ومتناسق وإعطاء رؤوسها شكل الخطاف أو نصف الرمح أو السهم، وكثيرا ما ما كانت تزين رؤوس هذه الأصابع الطويلة الحروف القوسية المنتخبة من الأسفل، وقد عرف هذا المظهر الجمالي بأسلوب الطغرا البنغالية، وهي تختلف عن الطغرا العثمانية اختلافا واضحا فقد استخدم الفنانون المسلمون في البنغال أسلوب الطغرا للكتابة على الأحجار بينما اقتصرت الطغرا العثمانية في الغالب على التوقيعات والشعارات الحكومية وكتابة البسملة وبعض الجمل الدعائية، ومع ذلك فإن الطغرا العثمانية هي التي كانت معروفة لدى الباحثين العرب وفي الغرب في الوقت الذي لم تحظ فيه الطغرا البنغالية على اهتمام الباحثين أو المؤرخين.

ويمكن تقسيم الطغرا البنغالية من الناحية الفنية والجمالية إلى أقسام عديدة نسبة إلى أشكال الحروف التي ابتكرها الفنانون خلال رسم تلك الحروف، وأهم هذه الأقسام أسلوب القوس والسهم وأسلوب الزورق

والمجاديف وأسلوب البجع وأسلوب كتيبة الجيش، ونلاحظ في بعض النقوش أن ذيول بعض الحروف متصلة مع بعضها وقد أطلق على ذلك اسم الخط المسلسل، وهناك خط آخر في بعض النقوش كان يكتب بطرف خاص من القلم حتى تتنوع سماكة الحروف فيه من موضع إلى آخر وسمي هذا الخط بالخط البهاري وكان يستخدم في كتابة المصاحف في مناطق مختلفة في الهند، واستخدم الفنانون أكثر من خط في النقش الواحد.

أما النقوش المغولية فقد تميزت عن النقوش الإسلامية السابقة في أمور مختلفة، فنلاحظ مثلا في كتابة تاريخ النقش أن الكتّاب بدأوا يفضلون استخدام حساب الجمل بدلا من تسجيل أعداده بالحروف أو بالأرقام، وقد شاع استخدام حساب الجمل في العصر المغولي بشكل عام في جميع مناطق الهند، ومن الجدير بالذكر أن استخدام حساب الجمل كان قد انتشر في كثير من الأقطار الإسلامية في تلك الفترة لدرجة أنه استخدم في بعض نقوش المسجد الحرام بمكة المكرمة.

أما السنة والتاريخ المذكوران في النقوش فكانا دائما يسجلان بالتقويم الهجري، وهي ظاهرة عامة في الكتابات الأثرية الإسلامية في معظم أنحاء العالم الإسلامي، ونرى في بعض النقوش الإسلامية المغولية أن تسجيل السنة كان بحساب جلوس الإمبراطور على العرش.

ومن الملاحظ أن الكتّاب في العصر المغولي كانوا قد اتجهوا إلى استخدام الأبيات والأساليب الشعرية لكتابة نصوص النقوش بدلا من كتابتها بأسلوب نثري كما كان التقليد سابقا، وتقدمت اللغة الفارسية في هذا العصر تقدما ملموسا وأصبحت هي اللغة الرسمية في البلاد وكتبت بها النقوش واللوحات وكثير من المخطوطات في شتى مجالات العلوم والفنون والأدب واللغويات والعلوم الدينية، وكان لنفوذ الشيعة وسيادتهم في الحكومة والمجتمع في بداية العصر المغولي أثره في نصوص بعض النقوش حيث كانت تحمل الطابع الشيعي وتسجل المنشآت الشيعية، إلا أن الأقلية الشيعية لم تنجح في السيطرة على دفة الحكم، وتقلص نفوذهم في بلاط الإمبراطور المغولي بدلهي مما اضطرهم إلى الهجرة إلى مناطق بعيدة لمزاولة نشاطهم السياسي والاجتماعي، وقد عثر أيضا على عدد كبير من النقوش في البنغال تتعلق بأضرحة الصوفية ومنشآتهم أو تسجّل أسماءهم وألقابهم، ويدل هذا على مركزهم الديني في المجتمع البنغالي، ويبدو جليا من بعض هذه النقوش أن وقف الأراضي للمساجد والمدارس كان تقليدا شائعا في ذلك

العصر، وتسجل نصوص بعض النقوش شروط صرف محاصيل الوقف وتحذر الناس من التصرف فيها وسوء استخدامها.

وتشير نقوش العصر المغولي إلى التفاعل الثقافي والحضاري الذي تم في تلك الفترة بين المسلمين والهندوس، فقد تأثر الهندوس كثيرا بلغات المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وشارك كثير منهم في أنشطة الدولة المغولية، وقد كتبت العديد من النقوش الفارسية التي تضمنت أسماء هندوسية وسجلت منشآت للهندوس مما يدل على الحرية الدينية التي كان يتمتع بها الناس آنذاك في تلك البلاد.

وختاما فإن بحثي هذا المتواضع ليس إلا خطوة على الطريق لدراسة تاريخ الحضارة الإسلامية في البنغال والهند عن طريق دراسة النقوش والكتابات التي عثر عليها في تلك البلاد، وكلي أمل أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في إضافة معلومات جديدة عن تاريخ تلك البلاد، وصححت بعض المعلومات الخاطئة في المصادر التاريخية، وفسرت بعض الأمور الغامضة في تاريخ تلك البلاد، ولعل هذه الدراسة تثير انتباه الباحثين والمؤرخين والمشتغلين بالفنون والآداب فتكون حافزا لهم للقيام بمزيد من الأبحاث العلمية في هذا المجال، والله ولي التوفيق .

الهوامش:

[1] فرغانة كانت إمارة صغيرة في آسيا الوسطى.

[2] . إحسان حقي. *تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية*. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1398هـ، ص 128.

[3] الساداتي. *تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية*، جزء 2، ص 47.

[4] سليم چشتي Chisti *كان من رجال الصوفية في تلك الفترة*.

[5] R.A. Jairazbhay, *An Outline of Islamic Architecture* (Bombay: Asia Publishing House, 1971), 315-321.

[6] الساداتي. *تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية*، جزء 2، ص 67-166.

[7] زار المدينة سراج الدين منهاج وهو يستخدم اسم لكنهوتي لها في معظم الأحيان، انظر في ذلك:

Mawlana Minhaj al-Din Siraj al-Din, *Tabaqat-i-Nasiri*, trans. Raverty , Vol. 1 (Lahore: Amir Publications, 1977), 536.

[8] *Encylopaedia of Islam* Vol. 11(Leiden: E. J. Brill, 1927), 131-132.

[9] Alexander Cunningham, *Archeological Survey of India*, Vol. XV (Delhi: 1969), 40-41.

[10] عاش فارياسوزا في الفترة ما بين 1581م و 1649م، وطبع كتابه Asia Purtoguesa لأول مرة عام 1616م.

[11] سوخومائي موخوبادهائي. تاريخ البنغال (باللغة البنغالية)، كلكتا، 1980م، ص 105.

[12] A. H. Dani, *Muslim Architecture of Bengal* (Dhaka: Asiatic Society of Pakistan, 1961), 50.

[13] Mr. Philip, "Ma Huan," *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, (1895): 523-535.

[14] *T'ong Pao*, trans. Rockhill (1915), 435-444.

[15] من أهم الأشكال ذات العناصر الزخرفية الوريدات الهندية والعجلات التي تشاهد كثيرا على الجدران الخارجية لهذا المسجد.

[16] *دائرة المعارف الإسلامية*: طهران، ط 1، جزء 9، ص 255.

[17] *المرجع نفسه*.

****